الرمز في رواية "السأم"

بقلم سعد الله ونوس

تنطوي بعض الاعمال الادبية على كثافة شديدة تهز خمول الذهن، وتجهد الرؤية التي تتلمس مسلكا يقودها الى صميم العمل ، حيث قاعه وقمته في الوقت ذاته .

ورواية البرتو مورافيا « السأم » ، هي بلا جدال ، مثل واضح على ذلك انها مثقلة بكثافة صميمية توقظ ، وترعش كأي تماس مباشر مع العري . كثافة خاصة تنبعث ـ ولا مفر من تحديد ذلك اذا شئنا فض اسرارها ومضامينها ـ من عمق القضية المطروحة في الرواية اولا ، ومن تعقد مستوى المعالجة ثانيا . فللرواية ملمحان : خارجي شكلي يكتظ بالروائح البشرية ، وانفاس الواقع ، وباطني يثوي في الاعماق الابعد تتعرى الشخصيات فيه من شكلياتها ، وتكتسب تجريدا حيا يعيد للقضية، بطرح رمزي بالغ العمق والنفاذ ، كليتها واصالتها الذهنية.

ولا غرابة في هذا ، فرواية « السأم » في جوهرها تجربة فلسفية مثيرة ترمي الى دراسة قضية ميتافيزيكية بحتة على منعكس انساني ، بصورة يتواجد فيها العنصران الاصيلان للدراما الازلية : الذات الانسانية والعالم . ويظل للقضية أيضا بعض تجريدها وذهنيتها .

والتجربة مبنية باحكام شديد يتأتى من الترابط التلقائي والموحي بين وجهي العمل : الخارج والداخل . فيفضي أولهما الى الاخر، ويكمل بواقعيته الثقيلة تجريد الرمز الجاثم وراء السطح.

ان خارجية « السأم » ، وهي ذات سمات واقعية صلبة ، تصنع خلفية ممتازة تعطي الرموز شروط تفاعلها الملائمة ، وتكسب الحياة الباطنية للرواية تجسيدا بشريا يغني التعبير المأساوي في الدراما، ويزيده حقيقية ودلالة . والاحداث التي تتالى ثقيلة .. هزيلة لا تساوي شيئا بذاتها ، بل بقدرتها الايحائية في المستوى الرمزي الذي ينطوي على المضمون الفلسفي للرواية .

ومن هذا المنظور بالذات ، ينبغي ان نتأمل هذا العمل ـ المفزع ـ عندما نحاول التغلغل الى صميمه ، والقبض على دخيلته .

ان دينو ـ وهو بطل الرواية ـ ليس مجرد انسان في وضع شخصي خاص ، كما يقدمه لنا الشكل الخارجي ، بل هو ـ على العكس ـ ترديد معاصر لابطال المآسي اليونانية القديمة الذين كانوا يرمزون الى الانسان في عموميته وتجرده ، ويلعبون ادوارهم الفاجعة في اطار معبر يومىء الى شمولها ، وجذريتها في الوجود الانساني.

وهذا ـ لا شك ـ ما يمنحه اهمية بالنسبة لنا ، فهو ببعض التخطي تجربتنا أو نموذجنا الذي يطرح ـ من جديد ـ ، وبتضحية هائلة ، المشكلة بكل ثقلها وقدمها ويأسها . (كمرسول) (1) كامو، كشف للحقيقية المرة من غير زيف او تضليل ، وبصورة تهب الرواية طابعا اسطوريا ذا ذاتية خاصة توائمه مع طبيعة العصر ، ومع التغير الطارىء على المناخ الذي يؤطر قضايانا الاساسية الثابتة .

انه ، وبحركة تجريد طبيعية وغير متعسفة ، الانسان .. بطل المأساة الصميمية الذي يستيقظ على عالم فارغ من التبريرات . تترابط الاشياء فيه بآلية مزيفة وهزلية . تجميد « مادوزي » يثير الضحك والاشمئزاز معا على حد تعبير (سارتر) . أو بكلمة اخرى ، عالم ناقص يعجز كليا عن اقناعه بوجوده الفعلي . ونقص الواقع متوفر دائما، لكنه لا ينكشف الا تحت وهج الوعي يتسلط عليه ، ويفضحه . ودينو، منذ الصفحات الاولى ، يقدم نفسه الينا من خلال عنف صامت، ينطوي على عذاب اصيل ورتيب . عنف ، لا نقاش ، ينبع من يقظة وعيه الطويلة، وارتطامه الموصول بالحقيقة ـ واقع المأساة المريع ـ .. هذا الارتطام الذي ينبت السأم . سأم مغاير « ليس عكس التسلية ، بل انه يشبه التسلية بما يخلفه من شرود ونسيان . ان السأم في نظري حقا نوع من النقص او عدم التلاؤم ، أو غياب حس الواقع » ... الغطاء القصير، والاحساس الواعي باللامعقولية ، حتى ان الكأس تغيب نهائيا خلف انعدام ـ مرعد ـ ، فلا يستطيع معاودة الاحساس بها الا بتهشيمها .

وهذه الوضعية مماثلة لحالة « مرسول » كامو ذي الشعور الثقيل .. المشوه بالواقع ، حتى ليلوح ان هذا الواقع ايضا غائب خلف الاصطدام الخانق باللامعقولية . ولكن ، بينما يعاني « مرسول » ذلك على مستوى الحس فقط عاجزا عن وعيه ، فان دينو يعي مشكلته ، ولا يمل تحليلها ، واضاءة شتى جوانبها ومنعطفاتها . مما يعطي التجربة جدتها او تميزها . فالقضية مطروحة هنا على مستوى عقلي يزخر بالتحليل والرؤية الواعية ، ولا يكتفي بالمعاناة الانفعالية ، المبهمة في أغلب الاحيان . وبطل «السأم» يعرف بتأمله الاستبطاني المرهف والمستمر مأزقه الصعب ، ولا يعجز عن تسميته بكلمات قليلة وبسيطة ، حينما يدعى لذلك . انه انفصام العلاقة بينه ، وبين هذا العالم السينمائي الزائف الذي يصفه كامو بأنه لا معقول وحسب . الاشياء كلها هنالك. وهو ـ هنا ـ وليس بينه وبينها شيء قط . فراغ فسيح من اللايقين كالفضاء النجمي ذاته .

والجدير بالقول ، ان انقطاع الارتباط مع العالم ، او غياب الشعور برسوخ العلاقة به ، ليس بالامر الهين او المحتمل . انه كحرمان الانسان أرضا يستند اليها بقدميه اللاغبتين ، أو كتعريته من الثقة والقائه في دوامة تأزم نهائي يكتنز بالشك والقلق بأسوأ معطياتهما النفسية. والانسان حين يضيع وتده الذي يسمره الى العالم ، أو يوهمه بذلك، ينزلق ـ دون مشيئته ـ الى لجة ميعان ممدود . متهافت ورمادي، تنعدم فيه الصلابة ، ويضيع منه اليقين ، فيتخبط في جوف الميوعة غارقا ببطء ، وبوحدة مرعبة مسمومة . ذلك ان الاخرين على الرصيف الثاني . هناك .. لا يسمعون .. لا يبصرون ، تفسل طمأنينة مصنوعة .. كاذبة وساوس صدورهم ، وتمنحهم نعمة النعاس الابيد . فالعالم موجود بكفاية ، أو العالم خارج دائرة السؤال ، لانه ليس هنالك سؤال، والمشكلة ملغية بالوراثة . لقد عرفوا ـ منذ القديم ـ كيف يعقدون روابطهم ـ المعيشية دائما ـ مع هذا العالم . روابط مزيفة حقا، ولكنها التخدر الهروبي الضروري الذي يعطيهم يقين الوجود، ويحصنهم ضد الانعتاق من كل الاوهام ، فلا يخبرون بذلك جحيم الرصيف الاخر، حيث لا ارض ثابتة . ومع هذا فعلى دينو أن يقف ، وطبعا دون معونة التصور اليومي الابله .

ان لعبة « العيش البشري » المكرورة ، التي تدور ككل يوم، عبر العصور . والتي تسد بتجاهل تافه كل الفجوات الفاغرة بين الانسان والعالم لا تنفعه ابدا . لانه ، مدفوعا باشمئزاز وعي نافر ، لا ينساق اليها بالمرة . وتأزمه ـ في جوهره ـ عبارة عن رفض ثائر ، ومنذ حداثة بعيدة ، لهذه اللعبة . فهو لا يقبل عالم أمه وشكلياتها التي تهبها الوثوق ، وتحميها من « الانفقاد » النفسي ، او لا يستطيع ان يندرج في حركة « الواقع التافه » الرتيبة والرخية لاغيا انبعاث المشكلة من

(1) مرسول هو بطل رواية « الغريب » لالبير كامو .

جذورها . ان أمه المنتمية الى حبا للمال، والى عاداتهـا الدقيقـة، واحترامها اللامتناهي للشكل ، والتي تمثل بصوفية مضحكة « الاسـرة ـ العالية ـ النبيلة جدا ، العريقة جدا التي لم يحدث لها في الماضي ان سئمت قط ، لانها كانت دائما في علاقة مباشرة ومحسوسة مع الواقع » ـ هذه الام ، تثير اشمئزازه ، وتغثيه . حتى انه ، عندما يكون ذاهبا الى منزلها ، يحس بنفور ، وكأنه يعود الى الرحم الذي حمله جنينا . ولهذا لا يحتمل البقاء معها اكثر من ساعات يفر بعدها مزدريا زيفها ، هاربا من غناها .

والغنى ـ هنا ـ يشـ يراستطرادا لا بد منه في هذه الدراسة. اذ انه أهم العناصر التي تبنى بها الخافية التي تحدثت عنها سابقا. فهو، بالاضافة الى كونه التيسير المعيشي للتأمل الفلسفي ، اداة فعالة لاجبار الواقع على بذل نفسه برخاصة . مما يحرم مالكه ، المبصر بالتحديد ـ من الانتماء الى آهداف مادية ، واستفراغ طاقات القلق في مطـالب مباشرة ، ومحسوسة .

والواقع ، ان معظم الروابط الممتدة بين الناس والعالم هي احلام معيشية مادية يتحدد النزوع بها ، ممثلة الاوتاد البعيدة التي يرتبـط الوجود بكل ديناميته وقدرته الانجازية بثباتها ومتانة صلابتها.

ـ انتحار مارلين مونرو التي امتلكت كل رغائبنا المادية دفعة واحدة ، مختزلة بذلك التحقق الكلي لاهدافنا التي تصلنا بالعالم في العادة ، يرقى الى مستوى الاعتراف بلا جدوائية هـذه الروابـط ، وعجزها الفاضح عن اقامة آية علاقة هادئة ، راسخة مع العالم .. هـذا العجز الذي لا ينكشف الا بنظرة من أعلى . نظرة بائسـة تتضمن علـى الدوام امكانية انتحار ناضجة . ـ

ومن غير شك ، ان بطل السأم يبغض من اعماقه الوضعية التـي تتيح له مثل هذه النظرة . فغيظه من غناه لا يفتر لحظة ، حتى ليحاول، بصبيانية تعيسة ، ان يصير فقيرا . ناسيا ان انسانا له ام غنية يمتنع عليه الفقر ، ويستحيل . ولو تعمقنا ـ في الحقيقة ـ هذه المحـاولة الدائبة ، لوجدنا انها تنطوي على معنيين مزدوجين ومتناقضين . فهـي، من جهة ، ادانة لكل العالم الذي تمثله أمه ، وفشل في محاكاة بشـر هذا العالم بالانتماء الى النقود .. رنينها وكمينها . ومن جهة ثانيـة حنين مبهم لوضعية الاحتياج التي تولد اهدافا مادية تعوض، او تلهـي عن المشكلة الاساسية ، وهو حنين لن يشبع بالتأكيد . بسبب اصـرار وعيه على الا يخون نفسه ولو حاول ، ولانه غني ـ جدا ـ ولو كره .

ثمة رابطة انتمائية اخرى ذات اهمية خاصة في الحياة البشريـة. وهي العاطفة . اذ ان الام ـ مثلا ـ تكتسب بتعلقها الشديد بابنها ثقـلا واستقرارا . والعاشق يعقد تواصلا مكينا مع الاشياء من خلال حبـه لفتاته . ولكن ، بالنسبة لهؤلاء الملعونين ببصيرتهم ، ليست العـواطف الا استجابة ساذجة للخديعة . ولذا فانهم يتجنبونها ، او يعجـزون عن تحصيلها . ولو سألنا دينو : ـ هل تحب أحدا ، بما فيه نفسك ؟ لاجاب على الفور اجابة مرسول لماري : ـ لا .

واذن ، فهو محروم ايضا من تخطيط الصلـة التـي يتلمسها، بايقاعات عاطفية جامحة تستنزف امكانية «اليقظة» كلها. وعليه ان يتقرى دربا اخر .

في شارع مارغوتا ، بعيدا عن عالم امه اللاحقيقي ، وفي جو خانق من الرفض . يحاول ان يعقد رابطته مع العالم بواسطة التعبير الفني. وعقد هذه الرابطة هو حالة عقلية ذات معطى نفسي. ولكن ، ما دامت سينمائية هذا العالم تجرده من ثقله ، ومن واقعية وجوده ، فـان الادراك يظل فارغا الا من وضعية الغياب فلا ينتج شيئا . والرسـام محتاج ـ بالضرورة ـ الى موضوع ، او الى رباط عقلي مع هذا الضباب الصامت ، والساخر الذي يدعى عالمنا . فاذا انعدم الموضوع ، وخـلا الادراك ، صار طبيعيا ان يقفز دينو ، ويمزق بضربات سكينه الحادة اللوحة المتكئة على مسندها ، مصرحا بفشل التعبير الفني في اعطائـه الاحساس بوجود الاشياء الذاتي . وعندما يضع لوحة بيضاء مكـان الممزقة ، ويوقعها باسمه ، ثم يتركها ، وحتى نهاية القصة ، مستنـدة على حاملها ، صامتة ، فارغة ينجز بذلك ، وعلى صعيد ايمائي ، الصورة الوحيدة التي تحكي حالته : المعاناة الدائمة لعبثية الواقع النـاقص، وغياب هذا الواقع بسبب لا حقيقيته وانسلاخه من الوهم ، بعيدا عـن ارادة الادراك .

ولا بد ـ هنا ـ من توضيح آن المعاناة من الاحساس باللاحقيقية، انما تنبع ـ بالدرجة الاولى ـ من تضمن هذا الاحساس وعيا نظريـا بأن هنالك حقيقة . الامر الذي يهيج « شبقا فريسيا » للقبض على هذه الحقيقة واصطيادها . وجميع « الغرباء » يعـرفون هذا الشبـق، ويتصرفون وفقا لدفعه الذي يشكل حافزهم السلوكي الوحيد . فـاذا علمنا بعد ذلك ان هذا الشبق ـ رغم سطحه الساكن ـ عنيف بركـاني يتوتر بين السلب والايجاب في اطلاقهما ، وبصورة معقدة لا تتوضـح الا على ضوء اليأس الازلي الذي يترصد اشباعه دوما ، عرفنا الخطـر الصامت الذي تنطوي عليه حياة المريض بالسأم ، والذي يتحفز ابـدا للانفجـار .

وعادة ، يحاول كل سئم ان يجد وهما شخصيا عن الحقيقة يستغرق شبقه النابح في أعصابه ، ويحدد لنشاطه هدفا ما . وهذا الوهم، عندما نرد له اصالته ، هو الرمز الذاتي لهذا العالم الاخرس .. اللامبالي ، والمنضم في غياهب صمت لا انساني على الحقيقة المنشودة . ولهـذا تتسم العلاقة به بكثافة من الغرابة والكثافة والشدة . وتتجاوز النتائج الشكل المعروف لتلاقح الطاقة مع الهدف ، فتسقط في غلو وتطـرف مؤسيين.

واختيار هذا الوهم لا يقوم غالبا على انتخاب عقلي دقيق، او بعد تمحيص وتدقيق ونظر . بل ـ على العكس ـ كثيرا ما ينبني على رد فعل عابر تبرره الحالة النفسية السيئة .. المضناة . انفجار مباغت فـي سيولة الحياة .. حرمان مادي محسوس ، ويهيج الشبق الفريسي آمـلا انه وجد المسارب التي يلج فيها ، وتتفرغ طاقاته وحرارته في اقنيتها. ويولد ظن ، ثم شعور ـ لا عقلاني بالطبع ـ بثقل حقيقية ما داخل هـذا الشيء . يتحقق بهذا وهم شخصي يزداد قوة ونفوذا كلما ازداد امتناعا. حتى ان هذه العلاقة تترجح الى نهائية متطرفة ، هي التي تفجر العمـق

المأساوي للاسطورة .

ولا فائدة في هذه العلاقة من تقييم السلوك بمقاييسنا اليومية التقليدية . لان ذلك غير عادل ، وقاصر نهائيا عن فهم موضوعية هذا السلوك وجوهره . ولن يثمر مثل هذا التقييم ابدا الا بضع احكام سطحية .. شائهة ، تصنع ـ بحتمية ـ ذلك السوء التفاهم الدائم بين الـ « هم » ويسميهم كولن ولسن « ذباب الشارع » ، وبين الـ « هو » دينو .. على سبيل المثال.

ولا ينبغي الان ان ننسى هذا لحظة واحدة ، لان على ضوئه ، وما سبق من ملاحظات ، يمكن فقط ان نجد المفتاح الذي ينكشف لنا كنه هذه الصلة الغريبة التي ربطت دينو الى سيسيليا .

ومن الواضح ، ان هذه الصلة بتطوراتها ، واثارها تشكل جوهر الرواية . وابتداؤها يعني ـ مباشرة ـ انتقال الصراع الدرامي الى مجال جديد .. مجال فسيح ، وقمي ، كالمعركة الفاصلة يستقطب كل قدرات الصراع متكاملة ، ويلقيها في تواجه محدود وناضج يهب التجربة ابعادها القصوى ، ويفضي بها الى خاتمتها المحتومة.

ولعل دينو كان يحس ، ولو بابهام مربك ، نهائية التجربة هذه المرة . فيصف شعوره وهو يتردد في التعرف على سيسيليا بانه «شعور الغثيان الخائف الذي يحسه جميع الذين يجدون انفسهم على عتبة واقع مجهول وغامض ، أو ربما ، بكل بساطة على عتبة الواقع لا اكثر، الواقع الذي ألفوا منذ وقت طويل الا يفهموه » .

ويحاول الفرار ، لكن الحافز السري يتغلب ، ويومىء بيده الى سيسيليا كي تعود ، ظانا انه يرفعها ليرمي السيجارة فقط .

وما كانت هذه العودة في بدايتها تعني شيئا ، لانه لا يلبث ان يقع فريسة سأمه الذي يغيب سيسيليا ، كغيرها من الموجودات ، في انعدام مرهق وخانق . وعندئذ ـ بحثا عن النجاة ـ يحاول ان يتخلص منها. ولكن ، يا للمفاجأة ، في اليوم الذي يقرر تنفيذ ذلك ، ترفض بذل نفسها المعتاد ، ولا تأتي ، مثيرة بهذا الدافع المباشر لبدء الصراع المختزن والمر . ان امتناعها عن المجيء يصبح معادلا لكونها حقيقية وممكنة الامتلاك . والواقع الذي يخفيه ضباب السأم هو منذ الاساس واقع مبذول لا يعرف الرفض . واقع لا حقيقي وزائف ، على عكس سيسيليا التي كانت تصير ، وهي تسير الى هدفها في اليوم التالي ، وعينا دينو مسمرتان على ظهرها تتبعانها ، الحقيقة « طبعا وهمها فقط » الجديرة بالامتلاك حتى الهوس .

هنا تنجلي كل الرموز التي تتشابك منذ الان بتركيز متعقل ومدروس: الانسان والعالم والمرآة .

والعلاقة بين دينو وسيسيليا لا معنى لها لولا انها تجسد هذه الرموز ، وتضع لها مدار حركتها ، وتماسها اليائس . ولا ريب ان الرواية تكتسب اعماقا واسعة وجديدة على ضوء رمزيتها . فسيسيليا ليست مجرد فتاة مراهقة نصفها ناضج ، والاخر طفولي ، وانما هي تمثيل بارع التصوير لعالمنا الصامت ، المتجرد ، اللامبالي ، الحيادي ، الذي يأخذ ولا يعطي . ووجودها غارق في سلبية قاسية فظة . فهو مغلق .. راكد لا يتجاوب ولا ينكشف قط . تماما كهذا العالم الذي يرتطم به الوعي الحنين البشري ـ عبثا .

ويعتمد مورافيا في الايحاء بهذا التمثيل على رسم حركات وكلمات

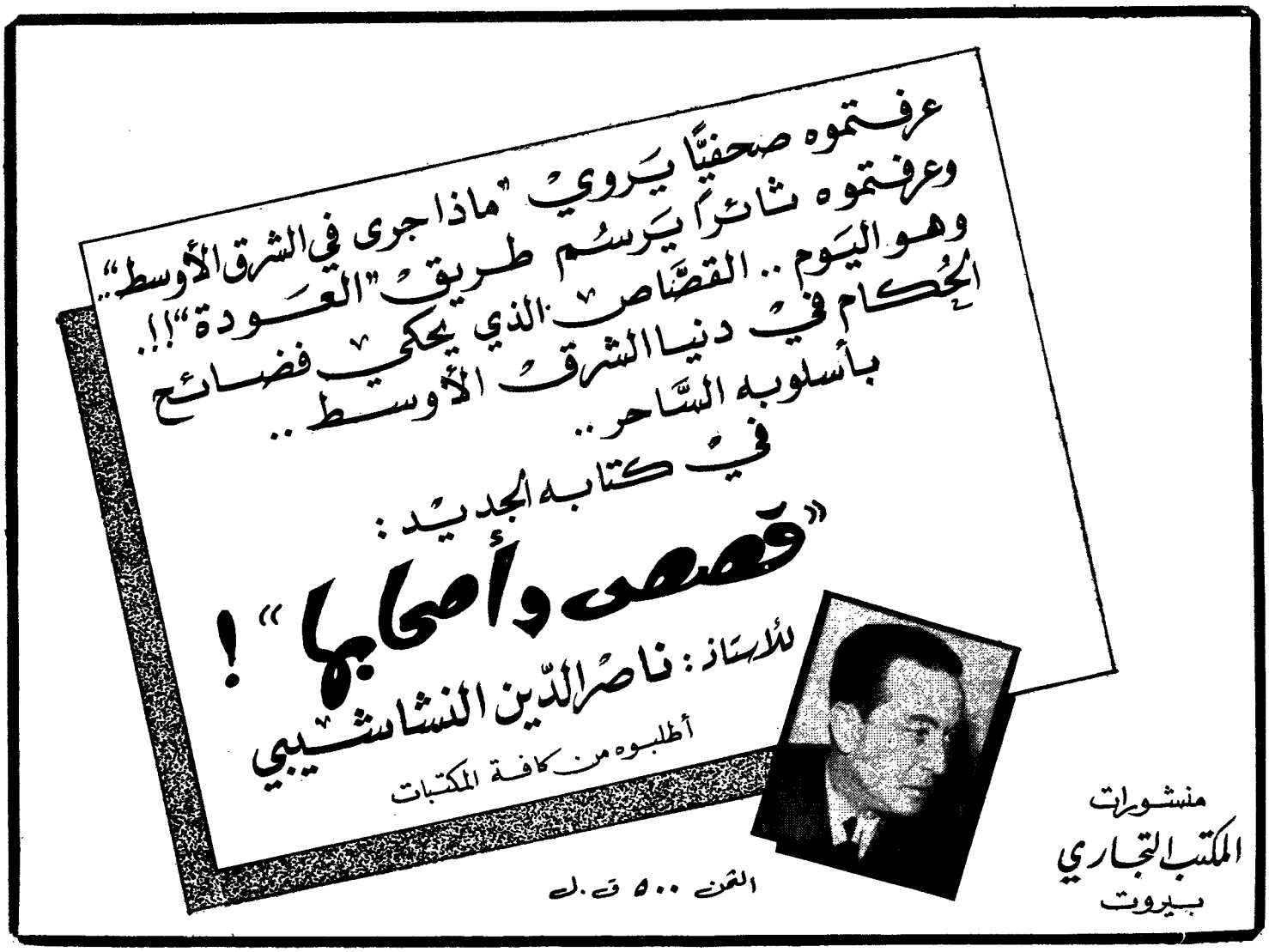

سيسيليا بدقة مذهلة . فهي الية ، جوفاء ، فارغة من كل استجابة كنثار صحراوي .. كلامبالاة مطلقة ، مقطعة الارتباطات ، لا تتصادى . لا تمنح . لا تعبر . لا تطلب . لا تشرح . لا تفهم . لا تبالي. حياة مسدودة وعاقر تظهر نفسها في سلسلة افعال جامدة ، مكشوفة بقدر ما هي مستغلقة وغامضة . ودائما خلو من التظليل الانساني الذي يلون به الانسان لغته وحركاته متلمسا « آنسنتها » واخراجها من حيز الجمود ، واللااكتراث ، والغرابة . وحينما تصفها والدتها بحزن : ـ آه .. ان سيسيليا لا تحب آحدا يا برفسور . تعبر ببساطة دقيقة عن اللامبالاة الكونية التي نحيا في جوفها ، والتي تعطي « شوق التواصل » فظاعته وشدته كما سنرى فيما بعد ..

اما دينو ، وقد صرنا قادرين على تمييز ملامحه ، فان الفارق في الانقطاع . لا يعرف كيف ينفذ من حصار اللاحقيقية وتفاهة الواقع لوعيه . يعوم في أعماقه شبق لاهث للتواصل مع الصلابة ، مع عالم يقيني لا تنعدم فيه الاشياء تحت ضغط التزيف القديم ، الموغل في القدم حتى لكأنه يحمل نفس اصالتنا . وهو وسط دوارة من اللاشيئية الجائمة ، كالضوء الباهر الابيض ، على عينيه ، ينقب بكل قدراته ، وبشكل صامت عن « وهم » يتجلبب بمسوح ـ الحقيقة ـ ، أو يجسدها في أعماقه اللاغبة ، المفعمة بالتوتر والتوقع .

حقا ، هو لا يعلن لنا انه يبحث . بل يبدو ، في الفصل الاول، وكأنه يتعايش مستسلما هادئا مع أزمته . مسميا سأمه بانه نوع من التسلية . ولكن ـ وما اوضح ذلك ! ـ لا يمكن تفسير ذلك الاحساس العاري بحقيقية سيسيليا على اعتبار انه وليد لحظته كشعور جد طبيعي. وانما يفهم فقط على ضوء كونه مختزنا منذ بعيد ، ناضجا يترقب سانحة وحسب لكي ينفجر بملامحه المرضية .. الشديدة التطلب . انه ـ بتكرار التعبير ـ دفع التوق الفائر للتواصل مع عالم حقيقي . توق شبقي فريسي ، ينتظر المنفذ .. اللحظة المباغتة التي تحمل على جوانحها سواء بسوء تقدير ، أو بصدفة ، أو بعقلانية غامضة ، لا فرق ، التوهم القدري الذي يحدد المشكلة . يؤطرها ، ويكثفها في ترابط جد بسيط ، ومتزاحم بالصفوف .

فانفلات سيسيليا ـ خيانتها التافهة ـ تتوافق ـ بآلية معقدة ـ مع غياب الحقيقة نفسها في دخيلة دينو ، حتى ان هذه الـ سيسيليا اللامملوكة تنزلق لا شعوريا لتأخذ مكان هذه الحقيقية وسمتها مزعزعة مظاهر الهدوء ، او التسليم السابقة . تلك ساعة صفر هائلة . وتبدأ أثرها مسيرة طويلة وشاقة تتلمس ، وبالحاحمتزايد عناقا مع «الحقيقة» تحت وهج الشمس وفي النور الدفاق الذي يمحو كل فجوات القلق، والظلال . وقد يكون من حق دينو ان تتضمن مسيرته بعض الامل، او قليلا من المنعطفات الغامضة التي تخبيء حتمية النهاية . لكن مورافيا وهنا يكمن تفرده في المعالجة ، يرفض ان يتسرب أي انخداع الى سياق التجربة ، ويحرص على ان تظل كل الاحداث على صفيحها العقلي، وداخل اطار من الانكشاف النظري يعمق قسوة النتيجة ، ويؤكد حتميتها بشكل مفزع .. موحش . ان دينو ، غير مسموح له ، بمتابعة خيالات زائفة لا حقيقية ، لان مرآة مرعبة تحاصره ، فلا يستطيع منها فكاكا . مرآة صادقة جدا، قريبة ومرعشة كرؤية وحشية. ذلك دور باليستياري، الرسام العجوز ، ذي الشعر الفضي الذي كان مولعا بسيسيليا ، والذي مات بسبب شبق لا يصدر ـ هو الاخر ـ عن حاجة جسدية ، بل يفوره توهم يائس كالسراب دائما يلتمع ، ودائما لا يمسك .

ودينو ، متابعا شعوره الغامض ، كان يعرف قصة باليستياري بما تسمح به لهجة سيسيليا من الدقة ، كان يعرف انه ، في غمرة يأس تنتفي فيه كل سلطة للعقل، شرع ينتحر اماموعيه المشلول دون انيستطيع توقفا او تراجعا . كان يبدد نفسه في فعل حب موصول ، نهم ، لا يخمد ، ولا يثمر صارخا بشبق قاتل : « استمري ... استمري ... استمري اريد ان تستمري دون ان تهتمي بي . حتى ولو اعترضت، حتى ولو انزعجت ، وان تميتيني ، تميتيني حقيقة » .

وفعلا كان ما يبحث عنه ، حينما ننزع غشاوة الوهم ، هو الانتحار يأسا ، واعترافا باللاجدوى . وهذه التجربة العاكسة تتضمن معنيين.. الاول هو انها حكم عقلي مسبق على مسيرة دينو دائم المثول امامه . والثاني هو انها تجربة اخر .

وقد يلوح منطقيا ان يحجم دينو بعد ذلك عن التردي ، والانزلاق على نفس المنحدر ، والى نفس القاع . نعم منطقي ، بيد انه لا واقعي بقدر منطقيته ذاتها . فان اليأس الماثل لا يكون عائقا امام مباشرة هذا الاغتراب الباحث ، ولا يهدىء جموحه ، كما ان تجربة الاخر لا تعني شيئا البتة . هي توضح مصيرنا . ربما. ولكنها لن تطفيء ابدا تشوقنا وظمأنا اللامتناهيين للقبض على اللغز المحير . ودورها كله ينحصر في كونها معرفة لا مجدية لليأس تزيد المحاولة عنفا وامضاضا .

وهكذا ، فرغم انغراز عيني دينو بمرآة مستقبله ، يندفع بلا تردد، مهتاجا للقبض على الدخيلة السرية التي بدت له من خلال تكتمها وامتناعها معقولة وحقيقية بشكل جهنمي الاثارة .

وعملية القبض هذه كانت تأخذ مسارين متوازيين : الحوار وفعل الحب .

غير أن استنطاق صمت العالم ، حياده ولا مبالاته وهربه ، بواسطة السبر العقلي كانت دائما من اشق الامور واعمقها . ومن البين ، ان الحوار البارد ، الدقيق الذي كان دينو يلجأ اليه ليس الا محاولة تعرية عقلية للدخيلة . ولكن العالم اللاشخصي لا يعرى بسهولة ، وانطباق شفتي سيسيليا المزعج ، والمثير هو بمثابة رفض الاستجابة المبهم للنفاذ الرياضي الى كثافة العالم الصماء . هذا الرفض الذي يقوي دافع الانغماس في المسار الاخر ، تعويضا على المستحيل الاول . ولذلك ينجرف دينو بعمى هائج ، بعد ان يقتل تجرد سيسيليا الحوار ويسده، الى مضاجعتها مرة ، ومرة دون نفور .. دون امتلاء لباليستياري ... مرآته المريعة .

وفعل الحب في رواية « السأم » لا يعني اشباعا جسديا لحاجة مثارة ، او تجاوبا متناسقا لنداء طبيعي. بل هو رمز محض . وتكفي مقارنة بسيطة بين هذا العمل في رواية « عشيق الليدي تشاترلي » مثلا وبينه في « السأم » لنتيقن من هذه الرمزية .

ان تضاجع الليدي مع عشيقها وقتما يبلغان ذروة اللذة كاف بذاته ، لانه الامتلاء الذي يسحق القلق ، ويبدد الضياع راميا مرساة السفينة الى القاع . وانفعالاتهما في هنيهة الذروة تزدحم دائما بلهثات نشوة كلية تتدفق في قنوات جسديهما كانشاد كوني غامر ، يتناهى من اعماق العالم .. من جذوره البعيدة . (الجذور البدائية لكل جمال مطلق) . فيرسخ وجودهما، ويمتنه برباط محكم ـ أزلي ـ . وعندما كانت الليدي تشاترلي عائدة ـ غسق احد الايام ـ من الغابة ، حيث نالت متعتها « كان العالم يبدو لها كالحلم ، واشجار الحديقة تنفتح

وتتطاول كاشرعة سفينة راسية . والطريق التي تصعد الى القصـــر تتاجج بحياة أبيدة » .

ولا شك ان هذا الصفاء النفسي الذي انعتق من التوتر ، والـذي تبع اشباعا جسديا يتباين ـ جذريا ـ مع ذلك الاعتكار القلق ، المتنـامي الذي كان يختص باطن دينو كلما اوغل في فعل الحب . فهناك تنسـد الفجوة ، لانها في اصلها عبارة عن الاغتساف الذي يحتبس صـــوت الطبيعة الاولى ، حيث تلج الحياة في الحياة ، كجمال بسيط ، قـــوي وحار ، او كانبعاث كياني متوهج . اما هنا فان المضاجعة تسرب وتلاش، ايفار للفجوة الاشد تعقيدا ، وتداخلا ، وتجسيد منهك .. انتحـــاري للعبث المطلق . ودينو لا يمتلىء بفعل الحب ، ولكنه يتفرغ ويزداد نهما اذ يعجز ـ الوشم ـ عن اشباع شبقه اللامتناهي . وقد بين هذا غامضا ما لم نعط فعل الحب دوره في الرواية كصلة فيزيـــكية ذات مغزى ميتافيزيكي ينجلي بالاعتبار الرمزي وحسب . انغوص دينو نحو الدخيلة يريد تسميرها وامتلاكها بالاعتناق يماثل او يساوي المحاولة القديمة ، الضاربة جذورها في اغوار تاريخ الفكر ، التي تتلمس توحيد العـــالم وتشبيته في مفهوم واحد يمتلك عبر عمل اغتصابي سريع فينغمر الذهـن بالضياء ، وتنعم النفس بهدوئها المقدس ، ودعتها الصوفية .

ولكن بما ان ذلك هو المستحيل الذي هدم كاليجولا من قبل ، فان الاتصال الجسدي يغدو عذابا سيزيفيا بلا تنقية ، وبلا مداورة ينساب خلال الرواية في ايقاع متساوي .. رتيب ومرهق كالاصطدام المتكـرر بالفراغ ذاته ، او كترديد فجيعية الدراما البشرية النابعة ـ في رأي كامو ـ من ذلك الحنين الى الوحدة ، وتلك الشهـــوة الـــى المطلق . « والامتلاك الجسدي لم يكن في العادة الا تكرار امتلاك ذهني سابـق. لقد حاولت طويلا ان اقسو معها واضمها ، واشدها ، واعضها والـــج فيها . ولكني لم اكن امتلك سيسيليا ، فقد كانت في مكان اخر ، مـــن يدري أين ؟ وانتهى بي الامر الى ان سقطت واهن القوى ، ولكنني ظللت ممتلئا بالغضب ، خارجا منها كما اخرج من جرح لا فائدة منه » .

وعبثا ، يحاول ان يرفع الصخرة الى القمة الشاهقة !

يجهد اولا في كشف خيانتها معتقدا ان هذا الكشف من شانه ان يضيء سريتها ، ويفضح « البساطة الكدرة اللغزية لذلك النوع من البتر البسيكولوجي الذي هو التكتم » . ولكن ، لا فائدة . فمندما تيقن مـــن خيانتها ازدادت غموضا ، وبالتالي اثارة للشبق . ثم يتوسل بالمـــال محاولا التقاطها ـ كموس ـ جد مكشوفة .. جد مبتذلة ويمكن تثمينها. ولكن ثانية لا فائدة . ففي حين « انه كان يستطيع هو وباليستياري أن يؤكدا انهما قد اعطياها مالا ، كان بوسعها ، من جهتها ، ان تبرهن على انها لم تكن ماجورة » . فهي لا تهتم بالنقود ، ورغم انها تقبلها ، لا تطلبها ابدا محافظة على لا مبالاتها وصمتها الباعثين على الاضطـــراب والقلق المضنيين . انها لا تمتلك ، ولا تلتفظ . وكلما تطرف ازدادت بعدا ونايا . واخر الامر ، يجرب سهمه النهائي فيعرض عليها الزواج ، غيـــر انها ترفض مفضلة متعة اقرب ، واكثر محسوسية . وهي السفر مـــع لوسياني الى لونزا لقضاء خمسة عشر يوما .

ويصطدم دينو بعد سفر شاق ورهيب ، كرحلة عبر ظلام صحراوي، باللاجدوى عارية دون تغطيات وهم او تخيل . سافرت سيسيليا. لملم العالم نفسه وتقلص اسود ، كثيفا لا يولج .. لا يخترق « وكل المعرفـة المتوفرة في الارض لن تعطيني شيئـــا يؤكد لي ان هذا العـــالم هـــو ملكي انا » (١) .

وهروب سيسيليا معناه انقاذ من مصير باليستياري . الانتحـار التدريجي بحثا عن صلابة ينفيها العقل ، لكن تتوهمها النفس وســـط حنينها وتوقها العظيمين . وهذا الانقاذ « والتسمية مجازا » يسقـــط دينو في شرك أسوأ ، بقية طرح الوجه الاخر للقضية عندما يكون على المرء ان يختار مرة واحدة في مواجهة اللاجدوى بدلا من التســـرب والتلاشي اللاراديين اللذين يميعان المصير ويبعثـــران دراماتيكيته.

(١) اسطورة سيزيف لالبير كامو .

والسؤال : أين الخلاص ؟.

ازاء اللاجدوى يخبرنا مورافيا ان هنالك مسلكين فقط . أن تدمر ما حولك ، او تدمر نفسك . « ولا يلوح بمسلك ثالث ، لانه توافقا مع هذه العقلانية الدقيقة التجريبية السائدة في الرواية يريد ان يستخلص هذا المسلك الثالث بدلا من ان يقترحه » .

ودينو ـ كما نعلم ـ فشل في تصريف توتراته عبر لذات سادية. الى حد ان تعذيب سيسيليا مرة اشعره بالغثيان . ولذا فان الاختيـار الاخر محتوم : ان ينتحر « كما يفعل أي عاشق ـ بمعنى عشق الحقيقة ـ منذ ان كان العالم عالما » محطما سيارته بشجرة دلب .

عند هذه النقطة ، أحب ان انتقل للحديث ، بايجاز شديد ، عـــن افكار كامو . اشد كتاب عصرنا اهتماما باللاجدوى. ففي دراستـــه النظرية « اسطورة سيزيف » يبشر بموقف ينطوي على نبل بطـــولي يواجه الوعي فيه اللاجدوى دون ان يفر ، او يختان ذاته ، راميا الى تحقيق تفوق ديالكتيكي الطابع . يستمد من صعوبة المواجهة وقسوتها شهية ـ حساسة ومرهفة ـ لمذاقات العالم من خلال لحظته الحاضرة . ويسمي كامو هذا التفوق بالتمرد . العطاء الجديد للحياة الذي ينجز وسط اليأس ، وبحضور الوعي حضورا كاملا .

ولا مندوحة عن الارتظام حتى ينبثق التمرد . ولذلك فان فرصـــة التظهر به متاحة للمحكوم بالموت لا المنتحر (٢) . وحينما يجابه مرسول قدره ـ الحكم بالاعدام ـ ، ويختار تمرده رافضا اغراء الامل الـــذي يهدهد ، يكسب حريته ، وينال ـ كتعويض ـ « حياة الاحاسيـــــس الفنية ، والمذاق الرائع للحظة الحاضرة .. » (٣) « النجـوم فـــوق جبهته » ، وبعض ضجيج الحقل الذي يسمو اليـ «ه» ، ورائحة الليل والارض والملح ترطب عار ضـ «ه» ، وسلام الصيف النائم يتسرب اليـ«ه» كانه الموجة » (٤) .

والحقيقة ، ان خلاصات التجربة المورافية تتفق كثيرا مع افكـــار كامو الاساسية هذه . فمع ان دينو قد انتحر ، متجنبا المواجهة الخالقة للتمرد ، الا ان مورافيا يفاجئنا بانعطاف مباغت يرد المصير الى صعيـد تمردي بحت . فدينو لم يمت نتيجة ـ انتحاره ـ ، بل نجا . والناجي من الانتحار يماثل المحكوم عليه بالموت . لكل منهما يواجه ـ من غيـــر امل ، وبتيقن لا انساني ـ العبث المجرد ، ويختار ـ كمنفذ ـ التمرد الذي لا يتابع المطامع غير المعقولة .

(٢) « ونقيض المنتحر هو ، في الواقع ، المحكوم عليـــه بالموت » اسطورة سيزيف .

(٣) كامو والتمرد » روبير دو لوبيه .

(٤) « الغريب » . وقد استبدلت صيغة الـ « انا » بالـ «هو».

دراســات ادبيــة

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقـــافة المصرية	لرجـاء النقـاش

وما اشد الشبه بين مرسول عشية تنفيذ الاعدام في زنزانته ، وبين دينو المصلوب بالجبس في احدى غرف المستشفى . فالاول يرفض الهرب او الانتحار ، ثم يقبض تعويضه : التذوق والحياة بعمق اكثر وباحساس اشد . والثاني يقنع باستحالة الامساك بالعالم ، وتلخيصه في حقيقة سهلة تروي غلة التوق ، ثم يبدأ في تذوق الوجود بشتى صيغه واشكاله نافذا من الثقب الوحيد الذي يحررنا . ثقب ينفتح فقط ، باستبدال عبارة : « اريد ان امتلك » بعبارة : لا تذوق ، او لافهم من غير أمـــان عقيمة .. مخيبة » .

ويتامل دينو الشجرة ، ثم سيسيليا ، وينبسط بتامله وشعوره بوجودهما الاخر .. بانهما مختلفتان ، ومستقلتان عن شخصه . وفي هذا المستوى ينتفي السام ايضا ويكتسب العالم وجوده من احساس اغتنى وازداد عمقا ورهافة . ومن الطبيعي ان هذا الاحساس يظل اسيـــر الوهم المطارد ، حبيس قبضته لا يبرز وينبثق الا في لحظة الاعتراف ، او اليقين باللاجدوى كمعطى وحيد في عالم انزلاقي املس .

ومعاودة الرسم او استطاعته تتحدد فقط بانبثاق هذا الاحساس ، لانه بمثابة « ايجاد » العالم .. أي موضوع الرسم . ويخبرنا دينـــو انه سيحاول العودة الى لوحته المنتظرة . ولكنه ، بفعل الخوف الطويل ، والارهاب النفسي الذي مارسته صعوبة المحاولة ، يظل قلقا ، او متشككا من قدرة حالته الجديدة على الصمود . حتى انه يتركنا دون ان يجـزم بان من يخبر التمرد لن ينتكس في نكوص جديد يلاحق فيه شهـوات زائفة وقاسية .

ولكن ، رغم ذلك ، يبقى الخلاص المعطى كامنا في اختيار التمـرد او الوصول اليه .

وهكذا تفضي الرواية ، بعد اضاءة الحركة الرمزية فيها ومـــع الاحتفاظ بميزاتها في المعالجة الى نتائج كامو النظرية ذاتها .

بقيت كلمة موجزة حول الشكل يثيرها ان الروايـــة الفلسفية معروضة دائما لخطر « الحسابية » ، بمعنى ان تتحول الى معادلة تفسر الناس والحياة على التموضع في رموزها ، واتخاذ منحى حركتها ، دون اي قدر من التلقائية المجانسة لحياتنا .

ـ اقرب مثل على ذلك هو رواية « طقوس في الظلام » لكـــولن ولسن . فهي عملية حسابية دقيقة تتصادم رموزها : العقل ، والاحساس ، والجسد ، في بوتقة احداث مصنوعة لتنتج في نهاية التفاعل عربـــة افلاطون ذات الحصانين المتباينين ، والتي تتسق حركتها بحكمة العقل القائد وحده .

والحسابية ـ من غير ادنى شك ـ تضعف الرواية ، وتقدد حيويتها بسلطة العقل المطلقة . مع ان الفلسفة انما دخلت الرواية لكي تكـــون اكثر تجاوبا مع « الوضع الانساني » واقل انعزالا . لتحيا وتنبـــض بكلمة ادق .

ورواية « السام » لم تستطع تجنب هذه الحسابية نهائيا . ويمكن لمحها ، وخاصة حينما نقرأ التمهيد والخاتمة لوحدهما ، ونرى كيف ان التمهيد معادلة ينقصها الحل ، وان الخاتمة هي حل المعادلة . ولكن ـ الى جانب ذلك ـ يمكننا ان نلحظ ايضا ، ان موهبة البرتو مورافيـــا قد احيت السياق بالرغم من ضيق المسرح ، وتحدد ابعاده . الشـــيء الذي يشعرنا احيانا باحتفاظ الاحداث ببعض التلقائية ، وبانها غيـــر مدفوعة بحتمية ظاهرة ، ومصنوعة .

وشخصية باليستياري ، وهي امتياز للرواية ، تفقر امكـــانيات هذه « التلقائية » دون ادنى ريب ، لانها ـ كما رأينا ـ مرآة يرتســـم فيها الدرب كالقدر ، وبشكل دقيق وواضح كالارقام .

ولعل الذي يعوض لهذا العمل ، او يبرره ، هو ان المشكلة طرحت بكل ابعادها ، وعولجت بمختلف ترجحاتها . وربما كان هذا بالـــذات المسؤول الحقيقي عما اتسمت به من حسابية .

سعدالله ونوس

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهـير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للماساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ فرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت